٢١

مؤسسة دار الحكمة للثقافة والعلوم الإسلامية

مركز مدرك للتنمية والدراسات الإسلامية

التعصب المذهبي

الشيخ حسين توفيق الظالمي

1443هـ - 2022م

التعصبُ المذهبي

يهدف هذا البحث إلى تسليط الضوء على مفهوم التعصب المذهبي، أسبابه، وآثاره السلبية على المجتمعات، مع التركيز على الحلول العملية لتعزيز التعايش المذهبي في مواجهة هذه الظاهرة.

مقدمة:

خير ما يفتتح به هو كلام الله عز وجل او حديث لأحد المعصومين (عليهم السلام) واذكر حديث لإمام الكلام أمير المؤمنين (عليه السلام) يقول فيه:

"ولقد نظرت فما وجدت أحداً من العالمين يتعصب لشيءٍ من الأشياء إلا عن علةٍ تحتمل تمويه الجهلاء، أو حجةٍ تليط بعقول السفهاء غيركم، فإنكم تتعصبون لأمرٍ ما يعرف له سببٌ ولا علةٌ"[١].

التعصب ظاهرةٌ قديمةٌ حديثةٌ نفسيةٌ اجتماعيةٌ تبدو بأشكال متنوعة ومتعددة وفي حال استفحالها، لها نتائجٌ خطرةٌ على الأفراد والمجتمعات والدول، وهو مرضٌ اجتماعيٌ يولد الكراهية والبغضاء والعداوة بين أبناء المجتمع الواحد، ويمزق النسيج الاجتماعي والعلاقات الاجتماعية، وهو باعثٌ للأضغان والأحقاد، وعاملٌ فذٌ من عوامل التفرقة، وهي تزيد أعداء الإسلام قوةً إلى قوتهم، وتساعدهم على ابتزاز منابع الحياة عند العرب والمسلمين، واستغلال ثرواتهم، وسجنهم في مناطق نفوذهم، لأنهم بعيدون عن نهج الإسلام، الذي قام على أساس قوله سبحانه وتعالى: (وَاعْتَصِمُواْ بِحَبْلِ اللّهِ جَمِيعًا وَلاَ تَفَرَّقُواْ وَاذْكُرُواْ نِعْمَةَ اللّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ كُنتُمْ أَعْدَاء فَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِكُمْ فَأَصْبَحْتُم بِنِعْمَتِهِ إِخْوَانًا وَكُنتُمْ عَلَىَ شَفَا حُفْرَةٍ مِّنَ النَّارِ فَأَنقَذَكُم مِّنْهَا كَذَلِكَ يُبَيِّنُ اللّهُ لَكُمْ آيَاتِهِ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ)[٢].

فجرت العصبية على الأمة الإسلامية الويلات والحروب، والقتل والاقتتال، فأصبحوا بذلك دويلاتٍ ضعيفةً لا تستطيع الدفاع عن نفسها، وعاجزةً عن استرجاع حقوقها المغتصبة وأراضيها المحتلة من قبل الكيان الصهيوني الغاشم.

---

١ محمد الرضي الموسوي، المعروف بالشريف، نهج البلاغة، تحقيق وشرح: محمد عبده، ط١، بيروت، دار المعرفة، ١٤١٢هـ، ج٢، ص١٤٩.

٢ القرآن الكريم، آل عمران آية ١٠٣.

مشكلة البحث:

تكمن خطورة التعصب في كونه عقبة في وجه التفكير العلمي، فالتعصب يلغي التفكير الحر والقدرة على التساؤل والنقد، ويشجع قيم الخضوع والخنوع والطاعة والاندماج، وهذا ينطبق على كل أشكال التعصب في شتى الميادين، وترجع أسبابه إلى عدم تربية الفرد اجتماعياً بالشكل الصحيح، وكما يقال: "أن الإنسان ابن بيئته"، ولد ونشأ فيها، وشرب من رحيق أسرته، وتعلم عاداتها وتقاليدها، وتأثر بسلوكياتها، لأن تلك العادات والتقاليد والسلوكيات غير مولودةٍ مع الإنسان، بل هي مكتسبةٌ، قال الإمام الصادق (عليه السلام): "ما من مولودٍ يولد إلا على الفطرة، فأبواه اللذان يهودانه وينصرانه ويمجسانه[٢]."

والطفل عندما يرى حوله مَن يمارس العصبية، فإنه يتأثر بذلك، وقد تنشأ في نفسه الكراهية والحقد والبغض والعداوة لمن مورست العصبية في حقه، او لغيره، ويتربى عليها وحينئذٍ يشكل خطراً على المجتمع.

وأما على مستوى المجتمع فلها آثارها السلبية والسيئة والخطيرة التي تؤدي إلى نشوء الحروب، وتمزيق الشعوب، مما يساعد على انتشار المشاكل الاجتماعية، كالفقر والبطالة وحب الثأر وارتكاب جرائم السرقة والقتل، وانتشار الجهل مما يؤدي إلى التخلف، وبذلك يسود الظلم والعدوان مما يجعل البلاد لقمةً سائغةً في أيدي الأعداء.

وقد قام الطالب الباحث في هذه الدراسة بتعريف التعصب، وانقسامه إلى ممدوحٍ ومذمومٍ، وتعرض بعد ذلك للعوامل التي ساعدت على نشوئه، منها ما هو مرتبطٌ بالفرد وتكوينه النفسي، من خلال التنشئة الاجتماعية، كالأسرة، والمدرسة والقدوة والرفاق، ومن

٢ . محمد بن علي بن الحسين بن بابويه القمي، المعروف بالصدوق، من لا يحضره الفقيه، تحقيق: علي أكبر الغفاري،ط٢، قم المقدسة، جماعة المدرسين في الحوزة العلمية، ج٢، ص٤٩.

خلال العوامل الثقافية كالمسجد والإعلام، ومنها ما شكلت عائقاً اجتماعياً ساعدت على انتشاره، ثم ذكر أشكال التعصب، وهي:

١- التعصب الفكري.

٢- التعصب الرياضي.

٣- التعصب القبلي.

٤- التعصب القومي.

٥- التعصب المادي.

٦- التعصب الاجتماعي.

٧- التعصب العرقي.

٨- التعصب الوطني.

٩- التعصب السياسي.

١٠- التعصب العنصري.

١١- التعصب الديني.

١٢- التعصب الطائفي.

١٣- التعصب المذهبي، الذي هو موضوع دراستنا، **ومن أسبابه:**

أ. الانتصار للمذهب الذي ينتمي اليه.

ب. تأثر علماء المسلمين بالفلسفة اليونانية.

ج. ظهور الفتاوى المنكرة.

د. الإعلام المضلل.

نشأة الظاهرة قيد الدراسة:

التعصب ظاهرةٌ قديمةٌ تبلورت بعد وفاة النبي (صلى الله عليه و آله)، أدت إلى انقسام المسلمين فرقاً وشيعاً، وأول ظاهرةٍ كانت بعد وفاته (صلى الله عليه و آله) هي مسألة الإمامة والخلافة، ثم تفاقمت في زمن الخليفة الثالث عثمان بن عفان حيث فرَّق في العطاء بين الموالي والعرب، وبين قريش وغيرهم، ومنع الموالي من دخول المدينة، وأنّ ولاة الأمصار لا يمكن أن يكونوا من الموالي، حتّى أنّ الشعوب الأُخرى غير العربية صار لديها ردود فعل اتجاه العرب، وظهر تيّار الشعوبيّة المعادي للعرب كردّ فعل على تصرّفات قد صدرت من هؤلاء كانت بعيدة عن منهج النبيّ محمّد (صلى الله عليه و آله).

واستمراراً لهذه السياسة فإنّ المهاجرين والأنصار طالبوا عليّاً (عليه السلام) بأن يميّزهم بالعطاء، ولكنّه قال لهم: إنّ نصرتهم للنبي محمّد (صلى الله عليه و آله) لها أجرها الأُخروي وليس من حقّهم المطالبة بالتميّز على الآخرين في الدنيا، ولذلك فإنّ أمير المؤمنين (عليه السلام) أوّل ما فعله هو رفع تلك السياسة الفاسدة التي ورثها المجتمع الإسلامي من المتقدّمين، ولهذا عندما تسلّم دفّة الحكم السياسي لم يشأ أن يتوسّع في رقعة البلاد الإسلاميّة والداخل الإسلامي يعاني من الخواء والفساد، فتوجّه إلى الإصلاح الداخلي، وللأسف فقد واجهه أصحاب معاوية وأصحاب الجمل والخوارج، وواجهته العصبيات القبليّة والعصبيات القرشيّة والأحزاب التي لم يرق لها عدل عليٍّ (عليه السلام).

ثم تفاقمت إلى أن انقسم المسلمون عقائدياً إلى أشعرية وعدلية وحشوية وجبرية ومفوضة ومرجئة، وعلى المستوى الفقهي إلى جعفري وحنفي ومالكي وحنبلي وشافعي، وفي الآونة الأخيرة الوهابي الذي كان سبباً في تمزيق الأمة شرَّ تمزيقٍ.

وما زلنا نعاني من تبعات ذلك، ونتيجة التعصب المذهبي تكفير بعضهم بعضاً.

أولاً: تعريف التعصب:

التعصب في اللغة:

قال ابن منظور: " التَّعَصُّبُ: من العَصَبِيَّة. والعَصَبِيَّةُ: أَن يَدْعُوَ الرجلَ إِلى نُصْرةِ عَصَبَتِه، والتَّأَلُّبِ معهم، على من يُناوِيهم، ظالمين كانوا أَو مظلومين ".

والعَصَبِيُّ مَنْ يُعِين قومَه على الظُّلْم، ويَغْضَبُ لعَصَبتِه، ويُحامي عنهم.

والعَصَبةُ: الأَقاربُ من جهة الأَب، لأَنهم يُعَصِّبونه، ويَعْتَصبُ بهم أَي يُحِيطُون به، ويَشْتَدُّ بهم.

ويأتي التَّعَصُّبُ بمعنى: المُحاماةُ والمُدافعةُ. وتَعَصَّبْنا له ومعه: نَصَرناه."[٣]

التعصب في الاصطلاح:

والعصبية: هي واحدة من سجايا النفس وصفاتها وميولها، ويكون أثرها الدفاع عن الأقرباء وحمايتهم، بل وجميع المرتبطين به بشكل من الأشكال، بما في ذلك الارتباط الديني أو المذهبي أو المسلكي، والارتباط بالوطن وترابه، وما إلى ذلك.

ويعرف Taylor & Ryan التعصب بأنه: "حالة خاصة من التصلب الفكري أو الجمود العقائدي، حيث يجسد اتجاهات الفرد والجماعة نحو جماعات وطوائف أخرى، ويكشف المتعصب عن خضوع كبير لسلطة الجماعة التي ينتمي إليها، مع نبذ الجماعات الأخرى، ويرتبط بذلك ميل إلى رؤية العالم في إطار جامد من الأبيض إلى الأسود، مع ميل إلى استخدام العنف في التعامل مع الآخرين"[٤].

---

٣ أنظر: محمد بن مكرم بن منظور الإفريقي المصري، لسان العرب،ج١، نشر أدب الحوزة، قم - إيران ١٤٠٥ هـ، ص٦٠٢ ـ ٦٠٦ .

٤ زايد الحارثي، بناء الاستفتاءات وقياس الاتجاهات، دار الفنون للطباعة والنشر، جدة، ١٩٩٢.

ويعرف قاموس العلوم الاجتماعية التعصب بأنه: "غلو في التعلق الشخصي بفكرة أو مبدأ أو عقيدة، بحيث لا يدع مكانا للتسامح، وقد يؤدى إلى العنف والاستماتة"[٥].

والتعصب كما تشير أدبيات العلوم الاجتماعية المعاصرة يشكل موقفا أو اتجاها ينطوي على التهيؤ الفردي أو الجماعي للتفكير أو الإدراك أو الشعور والسلوك بشكل إيجابي أو سلبي تجاه جماعة أخرى أو أي من الأفراد.

والأساس في التعصب، وفقا للمصطلح الغربي، "هـو الحكم المسبق pre-judging دون التحقيق في أسباب هذا الحكم تجاه جماعة أخرى ككل، أو اتجاه كل فرد من أفرادها منفصلين"[٦].

وفي هذا السياق يرى كل من "جورج سمسون" و "ميلتون ينجر" أن التعصب، سواءٌ أكان سلبيا أم إيجابيا، هو "موقف عاطفي وصارم تجاه جماعة من الناس" وبالتالي فإن التعصب لا ينطوي على حكم مسبق فحسب، وإنما ينطوي أيضا على سوء هذا الحكم"[٧].

ومن وجهة نظر علم النفس يعرف بأنه اتجاه جامد مشحون انفعاليا (اتجاه نفسي+ انفعالات تعصب) أو عقيدة أو حكم مسبق مع أو (في الأغلب الأعم) ضد جماعة أو شيء أو موضوع، ولا يقوم على سند منطقي أو معرفة كافية أو حقيقة علمية بل ربما يستند إلى أساطير وخرافات.

---

٥ سعد الدين إبراهيم، التعصب والتحدى الجديد للتربية في الوطن العربي، من الكتاب السنوي السادس للجمعية الكويتية لتقدم الطفولة العربية، الأطفال والتعصب والتربية، احتمالات الانهيار الداخلي للثقافة العربية المعاصرة، الكويت ١٩٨٨-١٩٨٩، ص ١٩٥-٢٠٩.

٦ سعد الدين إبراهيم، التعصب والتحدي الجديد للتربية في الوطن العربي ، مرجع سابق ، ص ص١٩-٧١.

٧ سعد عبد الرحمن: عملية التطبيع الاجتماعي، وأزمات التحامل والتعصب في مجتمعاتنا العربية المعاصرة، عالم الفكر الكويتية، عدد ١، أبريل إلى يونيو ١٩٧٠، المجلد الأول، ص ٨٣-١٣٢.

وإن كنا نحاول أن نبرره، ومن الصعب تعديله، وهو يجعل الإنسان يرى ما يجب أن يراه فقط ولا يرى ما لا يجب أن يراه، فهو يعمى ويصم ويشوه إدراك الواقع ويعد الفرد أو الجماعة للشعور والتفكير والإدراك والسلوك بطرق تتفق مع اتجاه التعصب[٨].

إذن يعتبر التعصب حالة مرضية غير سوية على المستوى الفردي والجماعي، فسلوك المتعصب يتميز بالنظرة الحادة الضيقة الأفق ويتصف بالرعونة والبعد عن التعقل، والتصلب في الرأي، والخضوع لسيطرة الانفعالات الجامحة والاستعانة بالقيم والعرف الاجتماعي السائد حتى ولو كان لا يلتقي مع اعتقاده.

والتعصب قوة هدامة ومخربة وعامل من العوامل الرئيسية في الحيلولة دون تحقيق وحدة الأمة لأنه يؤدي إلى اضطهاد جماعي لبعض فئات المجتمع وإنكار لحقوقها الاجتماعية والسياسية[٩].

وينظر علم النفس إلى ظاهرة التعصب على أنها اتجاهات تنمو بفعل تيسر فرص التعلم المتبادل ونمو التصورات المتعلقة بالجماعات الأخرى ويساعد على ذلك التمركز حول الذات، فالطفل يستمد اتجاهاته وقيمه من الجماعات التي ينتمي إليها، فهي التي تشكل هويته، فإدراك الهوية لا يمكن أن يجيء من خارج السياق الاجتماعي، والأفراد يدرسون عضويتهم في الجماعة من خلال فهمهم لأهمية جماعاتهم وعلاقاتهم بالجماعات الأخرى وأيضاً يلاحظون استجابات الكبار ويقومون بتقليدها[١٠].

٨ مختار حمزة، أسس علم النفس الاجتماعي، جدة، دار المجتمع العلمي، ١٩٧٩، ص٢٢٨.
٩ إبراهيم مدكور وآخرون،معجم العلوم الاجتماعية، القاهرة، الهيئة المصرية العامة للكتاب، ١٩٧٥، ص١٦٠-١٦١.
١٠ سلوى عبد الباقي، دراسة نفسية العصبيات القبلية في دولة حديثة (دراسة التعصب)، القاهرة، ١٩٩٩، ص٢٠٦-٢٠٧.

ويمكن تعريفه: "بأنه شعورٌ داخليٌّ مشحونٌ عاطفياً يبعث صاحبه على ممارساتٍ ومواقفٍ سلبيةٍ متزمتةٍ، فيرى نفسه على حقٍّ دائماً وغيره على باطلٍ، ويمنع صاحبه عن تقبل الطرف الآخر وانتقاده والحوار معه.

ثانياً: أقسام التعصب:

إن العقل قاضٍ بالضرورة أن بعض الأشياء والأفعال ما هو حسنٌ، كالصدق النافع والإنصاف والإحسان إلى الآخرين وشكر المنعم، وأن بعضها الآخر ما هو قبيحٌ، كالظلم والكذب الضار والإساءة غير المستحقة، وغير ذلك.

ويراد بالحسن كون الشيء صفة كمالٍ، كقولنا: العلم حسنٌ، وبالقبيح صفة نقصٍ، كقولنا: الجهل قبيحٌ.

فإن الضرورة قاضيةٌ من غير مخالجة شكٍ فيه، ولذلك كان هذا الحكم مركوزاً في جِبِلّة الإنسان، فإنا إذا قلنا لشخصٍ: "إن صدقت فلك دينار، وإن كذبت فلك دينار"، واستوى الأمران بالنسبة إليه، فإنه لو خليَّ وعقله لاختار الصدق لما تقرر عنده من حسنه ببديهة عقله.

والتعصب المذموم هو أن يحمي قومه أو عشيرته أو أصحابه في الظلم والباطل، أو يلج في مذهبٍ باطلٍ أو ملةٍ باطلةٍ، لكون ذلك هو دينه أو دين آبائه أو عشيرته، ولا يكون طالبا للحق بل ينصر ما لا يعلم أنه حقٌّ أو باطلٌ، للغلبة على الخصوم، أو لإظهار تدربه في العلوم، أو اختار مذهباً ثم ظهر له خطئه فلا يرجع عنه لئلا ينسب إلى الجهل أو الضلال.

وأما التعصب في دين الحق والرسوخ فيه، والحماية عنه، وكذا في المسائل اليقينية والأعمال الدينية أو حماية أهله أو عشيرته بدفع الظلم عنهم، فليس من العصبية المذمومة.

إذن التعصب من الأخلاق المذمومة والقبيحة والسجايا غير الحميدة، حتّى لو كانت في طريق الحقّ، أو من أجل أمرٍ دينيٍّ، ما دامت لا تستهدف إلّا تفوّقه وتفوّق مسلكه ومسلك عصبته، وما دام هدفه ليس الدفاع عن الحقّ وإظهار الحقيقة.

وأمّا إظهار الحقّ والحقيقة وإثبات الأمور الصحيحة والترويج لها وحمايتها والدفاع عنها، فإمّا أنّه لا يمكن تسميته بالتعصُّب أصلاً أو إذا سمّيناه تعصُّباً فهو ليس من التعصُّب القبيح. فالمرء إذا تعصّب لأقربائه أو أحبّته ودافع عنهم، فما كان بقصد إظهار الحقّ ودحض الباطل فهو تعصُّب محمودٌ وممدوحٌ، بل هو دفاعٌ عن الحقّ والحقيقة، ويعدّ من أفضل الكمالات الإنسانية، ومن خُلُق الأنبياء والأولياء.

وأمّا إذا تحرّك بدافع قوميّته وعصبيّته بحيث أخذ يدافع عن قومه وأحبّته في باطلهم وسايرهم فيه ودافع عنهم، فهذا شخصٌ تجلّت فيه سجيّة العصبيّة الخبيثة، وصار في زمرة أعراب الجاهلية الذين كانوا يعيشون في البوادي قبل الإسلام. بل إنّ هذه الصفة توجد في معظم أهل البوادي كما ورد في الحديث عن أمير المؤمنين (عليه السلام): "إنّ الله سبحانه يُعذّب طوائف ستّة بأمور ستّة: أهل البوادي بالعصبيّة، وأهل القرى بالكبر، والأمراء بالظلم، والفقهاء بالحسد، والتجّار بالخيانة، وأهل الرساتيق بالجهل"[١١].

ثالثاً: العوامل التي تساعد على نشوء التعصب:

قلَّ ما نجد هناك سبباً مسؤولاً عن التعصب بمفرده، بل يرجع لعوامل متشابكة ومتداخلة، وتكمن وراء ظاهرة التعصب عواملٌ كثيرةٌ، ففي أعماق كل منا يوجد لديه استعدادٌ كامنٌ لهذه الظاهرة تنبهه أو تنميه عوامل متعددة، نفسية أو اجتماعية أو سياسية قد

١١ احمد بن يعقوب بن إسحاق الكليني الرازي، الروضة من الكافي، تحقيق: علي أكبر الغفاري، ط٢، طهران، دار الكتب الإسلامية، ١٣٨٩ هـ.

تتداخل وتتشابك معاً لتشكل ظاهرة التعصب، فالأبستمولوجيا تلعب دوراً في تشكل هذه الظاهرة، عندما يغيب التفكير العلمي ويسود المجتمع التفكير الخرافي أو الأسطوري، ومن العوامل النفسية: الذهان، والإحباط وجهل الفرد حدود إمكانياته، والشعور بالعجز والنقص، والفشل المستمر.

والحمد لله رب العالمين